

المكتبة العربية في عصر الحروب الصليبية للاستاذ أحمد أحمد بدوي

- ٤ -

وكان النحو مادة أساسية من مواد الثقافة في هذا العصر ويكاد يشترك كل المتقنين في أن يأخذوا منها بنصيب ، ونادر من لم يشارك فيها ، وكانوا يعدونها أداة أساسية لدراسة العلوم الشرعية وأهم ما كان يدرس بالبلاد يومئذ كتاب الفصول للزمخشري ، وقد نال من عناية العلماء في ذلك العصر ما لم ينله كتاب آخر ؛ فظفر بشرح كثيرة منها شرح ابن الحاجب وشرح ابن يمين وساهمت البلاد مساهمة فعالة في الإنتاج ، وغزت كتبها العالم العربي بدورها حتى سارت تلك الكتب أهم ما يدرس في تلك المادة . وحسب أن أشير هنا إلى كتب ابن مالك وعلي رأسها أقيته ، وكتب ابن الحاجب ومن أهمها كافيته ، كما وضع ابن معطى القية . وقد عرفت من بين ما أنتجته هذه البلاد أكثر من أربعين كتابا منها المطول ومنها الموجز ، وعرفت من الرجال الذين ساهموا مساهمة كبيرة في دراسة هذه المادة زهاء مئتي عالم كان أكثر تخصصهم فيها

أما في اللغة فقد عرفت البلاد في ذلك العصر أمهات كتبها ؛

أمة من الأمم شاعرة حتى فهمت أنها أمة بدائية وأن حياتها العقلية ما زالت هامدة جامدة . فهيننا لمصر أن يضمحل فيها الشعر ويقل فيها الشعراء ، وأن يزدهر فيها العلم ويمتلئ بالكتب والعلماء

وتقبل في النهاية تحية خالصة ملؤها المودة الصادقة .

كمال بسبولى

فدرسها رجالها واختصرها حينما ووضموا عليها الحواشى التي تنقب ما وقع فيها من الوم ، كما اشتركت البلاد في الإنتاج اللغوي ، وكان أكبر ما تمخض عنه جهودها ذلك الكتاب العظيم اسان العرب لابن مكرم المصري وقد تم تأليفه سنة ٦٨٩ وجمع فيه مؤلفه بين التهذيب والمحكم والمصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية ورتبه ترتيب الصحاح

ورضع العلماء في ذلك الحين كتبها لا تصل إلى مستوى هذا الكتاب ، وناقولوا بعض نواحي فقه اللغة فكاتبوا في الاشتقاق والاشتراك والتصنيف وغيرها واشتهر من علماء اللغة يومئذ طائفة كبيرة، منهم تاج الدين الكندي وعبد الله بن رى وابن مكرم المصري

وفي علوم البلاغة درست مصر والشام ما عرفته اللغة العربية من الكتب التي ألقت فيها من قبل سواء في ذلك ما وضع في تلك العلوم بخاصة ، أو ما تناولها وإن لم يخص لها ، وتستطيع أن ترجع إلى كتاب بدائع القرآن لابن أبي الإصبع ترى ما عرف يومئذ من كتب البلاغة ، وتذكر أن مسائلها كانت لا تزال متفرقة بين كتب التفسير وكتب الأدب وكتب النقد والبلاغة ، وقد قام علماء البلاد يجمع هذا التناثر المتفرق هنا وهناك ، ثم لم يقفوا عند هذا الجمع ، بل زادوا ما وصلوا إليه بإجتهادهم الشخصي وأذواقهم الخاصة ، ووضموا كتبها كثيرة لم أر منها إلا ما لا يكاد زيد على أصابع اليدين

وكان دارسو البلاغة في ذلك الحين يرمون إلى هدفين : أولها دراسة بلاغة القرآن ، وثانيها القدرة على تدقيق القول الجليل والعمق على إنتاجه ، وما تبقى لدينا من كتب هذا العصر يدل في وضوح على هذين الهدفين ، وقد يتنكب أحدهما على الآخر في بعض الكتب ، فترى كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجواز ، وكتاب بدائع القرآن ، وكتاب التبيين في علم البيان لابن الزملاكي ترى إلى بيان ما أودعه القرآن من ألوان البلاغة ، بينما نجد الطالب على كتاب المثل السائر وكتاب معالم الكتابة ومفاتيح الإجابة وكتاب تحرير التعبير ، وكتاب البديع

لأسامة ضرب المثل البلاغية للتذوق والافتداء

وأشهر مؤلفي البلاغة في ذلك العصر ابن الأنبر صاحب كتاب المثل السائر وهو أسير كتاب بق لنا ، وعبد العظيم بن أبي الإصبع وبدر الدين بن مالك الذي اختصر المفتاح للسكاكي في كتاب سماه الصباح

— ٥ —

وظفرت المكتبة العربية في ذلك العصر بإنتاج ضخمة في التاريخ ، وألوان متنوعة فيه ، وشخصيات ذات أقدار متميزة من الناحية العلمية والاجتماعية ، ومن الممكن أن نتبين في هذا العصر أكثر من عشرين اتجاهًا في كتابة التاريخ

فبعض مؤرخي العصر قد أعجب بأسرته من ناحية مجدها السياسي حينما أو الملأ حينما آخر ؛ ومنهم من اكتفى بكتابة مذكرات شخصية سجل فيها مآرآه ، كما فعل أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار . وأنهج بعض علماء هذا العصر نهجًا صالحًا قويمًا فألفوا معاجم ترجموا فيها لأسانئهم الذين كانوا يلبفون في بعض الأحيان عدة آلاف ؛ وإن هذه المأجم خلية أن تطمينا فـكبرة حقيقية عن الحركة الفكرية والجهد العلمي في تلك الأيام ، وترسم لنا صورًا للتعليم وسماجه في تلك العصور

ومن المؤرخين من أعجب بشخصية ، ففضى بجمع أخبارها ويؤرخ لها ، وكان صلاح أوفر هذه الشخصيات حظًا ، كما ظفر نور الدين والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون بمنايا مؤرخي ذلك العصر ، وبق لنا من ذلك كتاب الروضتين

ولم يقف كثير عند حد الترجمة المفردة ، بل مضى يؤرخ لطائفة معينة من الناس ، كما جمع على بن ظافر الأزدي أخبار الشجمان والظفر بن قدامة مناقب الصالحين وأخبارهم ، ومن أم كتب التراجم النافمة الباقية لنا من ذلك العصر كتاب وفيات الأعيان الذي لا يكاد يستغنى عنه باحث في عصرنا هذا ، وكتاب معجم الأدباء لياقوت

ومضى بعضهم يؤرخ المكتبة العربية إلى ذلك العصر ، ولو أن هذه الكتب كلها بقيت لاحتططنا أن نرسم إلى مدى بعيد

صورة قوية لسير الحركة العلمية في هذا العصر ، وما سبقه من عصور ، وقد سأم الوزير القفطى بنصيب كبير في هذه الحركة ، فوضع كتابًا في أخبار المصنفين وما صنّفوه ، وآخر في أخبار النحاة ، وبق لنا إلى اليوم من الكتب التي تؤرخ لبعض نواحي المكتبة العربية كتاب ابن أبي أسيمة الذي دعاه عيون الأنباء في طبقات الأطباء

ومن أم معاني به المؤرخون في ذلك العصر تاريخ المدن ، يذكرون فيه من دخل المدينة ، أو سكنها من عطاء الرجال . وربما كان أضخم كتاب وضع في تاريخ مدينة في ذلك العصر هو تاريخ دمشق لابن عساكر ولا يزال موجودًا في أكثر من أربعين مجلدًا ، كما أرخوا لعصر وكتبوا في خططها ، وأرخوا لغير القاهرة كأسوان والفيوم والإسكندرية

وتنوعت الاتجاهات في كتابة التاريخ السياسي يومئذ ، فن المؤرخين من عني بتاريخ الوزراء كابن الصيرفي في كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة ، وعمارة الجيني في كتاب النكت المصرية ، ولا يزال الكتابان باقين . ومنهم من أرخ لعصر على ترتيب السنين ومنهم من أرخ للدولة الفاطمية أو الأيوبية ، ومنهم من عني بباقي أجزاء العالم العربي فوضع القفطى تاريخًا للمغرب وتاريخًا لليمن

وكانت العناية بالتاريخ العام أكبر من العناية بالتاريخ الجزئي ، وقد بق لنا ستة كتب تمثل هذا الاتجاه منها كتاب الدول المنقطمة للوزير جمال الدين الأزدي ، وقد تضمن أخبار الدول الإسلامية وحوادثها وغزواتها وهو مرتب على السنين ، ومنها كتاب تاريخ الزمان في تاريخ الأعيان ألفه سبط ابن الجوزي ، وكتاب أبي شاكر بطرس المعروف بابن الراهب وقد جمع فيه التاريخ من آدم إلى عصره في إيجاز وللشيخ ابن العميد كتابان في التاريخ أحدهما يدعى تاريخ ابن العميد وهو يبعث في تاريخ ما قبل الإسلام ، والتاريخ يدعى تاريخ المسلمين وانتهى به إلى سنة ٦٥٠ وكتب ابن واصل كتابه التاريخ المسالحي في التاريخ العام ونالت الجغرافية في هذا العصر حظًا كبيرًا من عناية رجاله

مختارات من شعر شعراء العرب ومصر والشام والحجاز واليمن
وصقلية والمغرب والأندلس ، وكتاب المغرب في أعلام أهل
المغرب لابن دحية

ومن دراسات الآثار الأدبية كحواشي الكندي على خطب
ابن نباتة وديوان المتنبي وشرح شيم الحلي على مقامات الحريري ،
وإبدار الکتب شرح الضرير النحوي على تلك المقامات
ومن معاجم تحوى أخبار الشعراء والأدباء كمعجم الشعراء
لياقوت ، ومعجم شعراء الشيعة ليحيى بن حميدة
ومن مختصرات الكبريات الآثار الأدبية كما فعل محمد بن
عبد الكريم المهندس الذى اختصر كتاب الأغاني الكبير
وفى هذا المعصر نهض الشعر نهضة كبرى ، فقدم للمكتبة
العربية كثير من الدواوين نذكر من بينها ديوان الفاضل الفاضل ،
وابن سناء الملك وابن مطروح والبهاء زهير

أحمد أحمد بروى

مدوس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

وتنوعت اتجاهاتها ، وبحسبنا أن ينتج هذا المعصر كتاب معجم
البلدان لياقوت الذى يمد من أهم المصادر إلى وقتنا هذا

— ٦ —

وكانت الفلسفة موضع عناية الفاطميين فقد كان الدعاة يلقنون
تلاميذهم حيا ، ويحسونهم على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو
وفيثاغورس ومن على شاكرتهم ، ويهونهم عن قبول الأخبار
والاحتجاج بالسمعيات ، ويزينون لهم الاقتداء بالأدلة العقلية
والتعويل عليها ، ويحيلونهم إلى ما تقرر فى كتب الفلاسفة من
العلم الطبيعي والسم الإلهي ، فكانت دراسة الفلسفة للدعوة
الشيعة وإحدى دعائمها ، ورغم ما كان للفلسفة من هذه المكانة
القوية لم أهتم على فيلسوف نبغ فى هذه الفترة التى شهدت
الحروب الصليبية ، وربما رجع ذلك إلى ما لاته آثار الفاطميين
الفكرية من تشريد على يد صلاح الدين الذى كان سنيا يكره
الفلسفة ورجالها ويراها مضلة . للمقول وتأثر الكامل خطوات
عنه صلاح الدين ، ويظهر أن اضهاد الفلسفة قد خفت وطأته
بعد موت الكامل وأخيه الأشرف ، وتولى بعض دارسها
مناصب كبيرة فى الدولة كالتقضاء ، أو مناصب دينية كبرى كعهد
ابن أبى بكر المعروف بالأبكي وكان إماما فى النطق وعلوم الأوائل
فإنه استقر بعشيخة الشيوخ بمخاتفه سميد السعداء ، وظهر فى
هذه الفترة التى استعاد فيها دارس والفلسفة والنطق حريتهم علمان
ممتازان هما عز الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٦٠ وأستاذه أفضل الدين
الطونجى المتوفى سنة ٦٤٦ ، وقدم الطونجى كتبا كثيرة فى
النطق للمكتبة العربية لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم ككتاب
الوجز ، وظفرت كتبه فى النطق بمنايا كثير من العلماء فشرحها
بعضهم وعلق عليها آخرون

— ٧ —

وتنوع الإنتاج فى المكتبة الأدبية يومئذ ؛ فن مجموعات
تحوى رائع القول كما فى كتاب الآداب النافعة والألفاظ المختارة
الجامعة لابن شمس الخلافة الأفضلى وكتاب تذكرة ابن المديم
التي ضمنها كثيرا من الآداب ونوادير الأسماء . وأهم ما نطق لنا من
هذا النوع كتاب خريدة القصر للمهاد الأصبهاني وقد تضمنت

فنيح الأدب العربي

للاستاذ أحمد حسن الزيات



يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا
العصر ، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ،
واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة
وتغنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد